قضايا ونظرات

(الوطن والأمة والعالم)

"المثقفون" و "الإصلاح الديني" في مصر مابعد الثالث من يوليو[1]

د. أميرة أبو سمرة

27

مايو

2015

"المثقفون" و"الإصلاح الديني" في مصر ما بعد الثالث من يوليو

مقدمة السلسلة

"إن عيسى سوف ينتصر في "معركة الإصلاح الديني" كما انتصر في "معركة التنوير السياسي""، هكذا أكد أسامة الغزالي حرب في خاتمة مقاله في جريدة الأهرام، ذلك المقال الذي حمل عنوان "إبراهيم عيسى" وجاء تضامنا مع الأخير بعد ضجة أثارها إنكاره عيسى لوجود عذاب في القبر[1].

وأكم من تساؤلات تثيرها مثل هذه العبارة التي كتبها أسامة الغزالي حرب بكل هذا اليقين والحسم: من يخوض معركة الإصلاح الديني؟ وضد من؟ وخدمة لمصالح من؟ وما هي مقومات المشاركة في المعركة؟ وما هو مضمون هذا الإصلاح الديني المرتقب؟ عن أي إصلاح يتحدثون؟ وأي إصلاح يريدون؟ ثم، هل هذا الخطاب العلماني هو منتج لسياق ما بعد الثالث من يوليو 2013؟ أم أنه امتداد للخطاب ذاته في مراحل سبقت؟ هل يشهد الخطاب العلماني تحولا كميا (بكثافة أعلى أو مشاركة أكبر) أم تحولا كيفيا؟ هل غياب غلاة الإسلاميين (بل وعقلائهم) عن المشهد السياسي يترك الساحة لغلاة العلمانيين؟ كيف يخدم العلمانيون النظام السياسي؟ وكيف يوظف النظام دعاوى الإصلاح الديني خدمة لمصالحه وتأمينا لبقائه؟

هذه التساؤلات وغيرها تدور في خلفية هذه السلسلة من المقالات المعنية برصد مشاركة المثقفين العلمانيين فيما يسمى بالإصلاح الديني في مصر.

فواقع الأمر أن هذه السلسلة من المقالات ليست معنية بالخطاب العلماني في ذاته، ولكنها معنية بالخطاب العلماني قدر رفعه شعار المشاركة في "تصحيح الدين". ففي غمار هجمة "المثقفين" العلمانيين على مشروع الإسلام السياسي بروافده وتياراته المختلفة يطرح هؤلاء فهما بديلا يعتبرونه الأصح للدين. ومن ثم كان لابد من التوقف لرصد معالم هذا "الإسلام الآخر"؛ كما آثر البعض تسميته في عنوان باب من أبواب جريدة اليوم السابع، خاصة وأن "المثقفين" قد كلفوا "رسميا" بالترويج لهذا الفهم من أجل "تصحيح صورة الإسلام لدى المواطن البسيط الذي ارتبك". [2]

---

[1] أسامة الغزالي حرب، "إبراهيم عيسى"، جريدة الأهرام، 31 يوليو 2014

[2] هكذا جاء تكليف الرئيس السيسي للمثقفين في لقائه معهم وحسب ما صرحت به الكاتبة فاطمة ناعوت في حديث تلفزيوني لقناة صدى البلد يوم 20 ديسمبر 2014، ورابط الخبر:

إن هذه السلسلة من المقالات تتوقف لرصد تلك الحركة المتداخلة ما بين الترويج لفهم جديد للدين، وما بين الدعوة لممارسة أقسى وأقصى درجات الإقصاء الفكري والتحريض على الإقصاء المادي ضد تيارات الإسلام السياسي، وما بين تقويض المشروعات السياسية ذات المرجعية الدينية برمتها، وما بين تبرير انتهاكات النظام لحقوق المعارضة الإسلامية والمدنية على حد سواء، وما بين مساعي إكساب النظام السياسي شرعية يفتقر إليها.

أما المثقف فهو –في تعريف الكاتب العراقي شامل عبد العزيز– "أقرب ما يكون للمثقف في تعريف جرامشي"، حيث "كل الناس مثقفون ...ولكن ليس لكل إنسان وظيفة المثقف"، فالمثقف هو من يستطيع ليس فقط إقامة الأبنية الجديدة وإنما هدم الأبنية الفكرية القديمة وتفكيك المسلمات وتقديم إضافة "سواء في العلم أو المعرفة أو الفن أو الأدب"، ومن ثم فالمثقف –في تعريف هذا العلماني الأصيل– صفة لا تقتصر على من يشتغلون بحرفة الكتابة، كما جاء في المعنى اللغوى للكلمة؛ كما في تثقيف السيف بمعنى صقله. هكذا ميز شامل عبد العزيز بين الثقافة واللغو، فالثقافة "طاقة إبداع وفضول وكشف عن علاقات لا يراها عموم الناس". [3]

وهو تعريف يكفينا لكي ننطلق مع هذه السلسلة من الأوراق بحثا عن تلك "الأبنية الفكرية القديمة" و"المسلمات" البالية التي تبدو بحاجة لمن يهدمها حتى نصل إلى "فهم صحيح للدين"، حمل هؤلاء المثقفون لواء تعريف عموم الناس به.

هي إذا لقطات متفرقة من تصريحات وكتابات ولقاءات تلفزيونية لعدد من "المثقفين" الذي يجمعون بين التوجه العلماني وبين الإفصاح عن رغبة في المشاركة في صياغة خطاب ديني جديد تتوقف هذه السلسلة من المقالات لرصدها وتحليل دلالتها والبحث عن الخيوط المشتركة التي تجمعها.

---

http://www.egyptianpeople.com/default_news.php?id=262826#sthash.utjIDxCl.dpbs

[3] شامل عبد العزيز، "ما هي الثقافة، من هو المثقف؟"، الحوار المتمدن، صحيفة يسارية علمانية إلكترونية، العدد 3659، الرابط الإلكتروني www.ahewar.org

"المثقفون" و"الإصلاح الديني" في مصر ما بعد الثالث من يوليو (1)

تقرير رصدي وتحليلي عن أحداث في شهر إبريل 2015

د.أميرة أبو سمرة

شهد شهر إبريل عام 2015 مجموعة متنوعة من إسهامات "المثقفين" في عملية "الإصلاح الديني" التي ينشدونها في المجتمع المصري. فما بين شريف الشوباشي الذي دعا بحماسة لتظاهرة تخلع فيها المحجبات حجابهن تعبيرا عن "رفضهن لفكر الإخوان المسلمين والمتأسلمين"[4]، وما بين مناظرة بين إسلام بحيري والدكتور أسامة الأزهري والشيخ على الجفري تراوحت عملية "الإصلاح الديني" ما بين الهراء وما بين أعمق درجات الخطورة والتهديد.

وشريف الشوباشي هو أحد هؤلاء العلمانيين الذين لم يبخلوا على الشعب بفهمهم الثمين لمعنى الإصلاح الديني في الفترة الماضية بتوجيه دعوة لتظاهرة مليونية تشارك فيها النساء والفتيات بخلع حجابهن تعبيرا عن رفضهن للإخوان المسلمين. وبينما يجاهد المرء نفسه لكي يلتفت إلى هذه الواقعة الهزلية –وإلى ما أحدثته من ردود أفعال إعلامية وصحفية– بقدر لا تستحقه من التحليل، تطالعنا جريدة اليوم السابع بتصريح أكثر هزلية للشوباشي يبرر فيه عدوله عن الدعوة للمليونية "لا أستطيع تحمل تعريض فتاة للأذى من بعض المتطرفين الذين يلجأون للعنف، والمرحلة الحالية تحتاج إلى تمهيد مجتمعى لهذا الدعوة تخوفا من الذين ينسبون أنفسهم للإسلام".[5] مرة أخرى يعاد تعريف الإسلام بحيث يصبح أولئك الذين يرفضون دعوة خلع الحجاب "في زمرة من ينسبون أنفسهم للإسلام".

---

[4] محمد إسماعيل وأحمد عرفة، معركة مظاهرة خلع الحجاب تتواصل .. سيد القمني ينضم للدعوة.. والشوباشي لمهاجميه: بيني وبينكم سنوات ضوئية..ورئيس تحرير القاهرة يرد: "جوهر الحرية هو حق الاختيار".. وناشط قبطي يصف الدعوة بالـ"مثيرة للفتنة"، جريدة اليوم السابع، الأربعاء 15 إبريل 2015،
http://www.youm7.com/story/2015/4/15/%D9%85%D8%B9%D8%B1%D9%83%D8%A9-%D9%85%D8%B8%D8%A7%D9%87%D8%B1%D8%A9-%D8%AE%D9%84%D8%B9-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%AC%D8%A7%D8%A8-%D8%AA%D8%AA%D9%88%D8%A7%D8%B5%D9%84-%D8%B3%D9%8A%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D9%82%D9%85%D9%86%D9%89-%D9%8A%D9%86%D8%B6%D9%85-%D9%84%D9%84%D8%AF%D8%B9%D9%88%D8%A9-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B4%D9%88%D8%A8/2141837#.VVb1V_mqqko

[5] شريف الشوباشي يتراجع عن التظاهر لـ"خلع الحجاب": تحتاج إلى تمهيد مجتمعي ، جريدة اليوم السابع، 27 أبريل 2015
http://www.youm7.com/story/2015/4/27/%D8%B4%D8%B1%D9%8A%D9%81-%D8%A7%D9%84%D8%B4%D9%88%D8%A8%D8%A7%D8%B4%D9%89-%D9%8A%D8%AA%D8%B1%D8%A7%D8%AC%D8%B9-%D8%B9%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B8%D8%A7%D9%87%D8%B1-%D9%84%D9%80%D8%AE%D9%84%D8%B9-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%AC%D8%A7%D8%A8--%D8%AA%D8%AD%D8%AA%D8%A7%D8%AC-%D8%A5%D9%84%D9%89-%D8%AA%D9%85%D9%87%D9%8A/2157791#.VVLXgfmqqko

لكن دعوة شريف الشوباشي لم تعدم من يدعمها ويؤيدها ويدافع عن حقه في التعبير عن الرأي. في هذا السياق كتب حمدي رزق مقالا بعنوان "امسح دموعك يا دكتور جمعة"[6] يحمل كثيرا من سمات المشاركة العلمانية في عملية الإصلاح الديني. فردا على بكاء الدكتور علي جمعة في أحد البرامج في إحدى الفضائيات التليفزيونية وهو يوجه رسالته "للعلمانيين" داعيا إياهم للانشغال ببناء البلد بدلا عن الاشتراك في ذات "الخطة الخائبة التي سبق لهم ممارستها في أواخر القرن التاسع عشر وفشلوا من خلالها في إخراج هذا الشعب عن دينه"، ردا على هذه الواقعة يكتب رزق مقاله. ويستنكر الكاتب بشدة المنطق الكامن خلف رسالة د. علي جمعة، والذي يصنف العلمانيين كما لو كانوا يقفون في مواجهة مع الدين، فبينما يرفض العلمانيون "فكر نفر من الأزهريين" إلا أن منهم من يصلى ومن يزكي ومن يحفظ القرآن، بل إنهم في رفضهم لهذا الفكر إنما يمتثلون لأمره تعالى بإعمال العقل والتدبر. ومن ثم يخلص رزق إلى أن العلمانيين –الذين يدعون إلى حرية الاعتقاد والفكر– ليسوا هم من بحاجة لمراجعة منهجه، وإنما من هو بحاجة لمراجعة أفكاره هم داعش والقاعدة وغيرهم ممن يسفكون الدماء ويستبيحون الأعراض ويهدمون الصوامع والبيع ويتلذذون "بشرب بول الإبل تبركا" –حسب تعبيره.

يثير الكاتب إشكاليتين أساسيتين: الإشكالية الأولى حول حدود دور العلمانيين في التصحيح الديني! هل يسري عليهم ما يسري على باقي المسلمين من حاجتهم للتحصل على العلم الشرعي والفقهي من أهله أم أنهم يختلفون عنهم في حقهم في إعمال العقل في نصوص وتراث قد لا يمتلكون أدوات التعامل معهم؟

أما الإشكالية الثانية فترتبط باستدعاء تيارات إسلامية عنيفة كذريعة كبرى يستخدمها من يريد إقصاء الدين عن السياسة، ومن يريد ترك النص لتأويلات الهوى بلا ضابط ولا رابط، ومن يريد هدم العلم الشرعي والتخصص الشرعي وترك الدين ليفهمه العامة كيفما شاءوا.

وحين ردت دار الإفتاء المصرية على شبهات الفكر التكفيري من خلال مرصد أسس خصيصا للتصدي للفتاوى المنتمية لهذه النمط من التفكير، خرج علينا المرصد في تقريره العشرين "التنظيمات التكفيرية والمواطنة.. عداء الفكر والممارسة" ليخبرنا بأن أصحاب هذا الفكر إنما يعادون الدولة ويقوضون المواطنة ويسعون لهدم مؤسساتها وبث روح الفرقة والخلاف بين جنباتها واستهداف أقلياتها على نحو يزرع الشك وعدم الثقة بين المجتمع والدولة. أما العلاقة بين العقيدة والمواطنة فهي علاقة تكامل لا

[6] حمدي رزق، "امسح دموعك يا دكتور جمعة"، المصري اليوم، الإثنين 2015/5/4، على الرابط الإلكتروني:
http://www.almasryalyoum.com/news/details/724079

تناقض".[7] لا يملك المرء حيال هذا التقرير إلا أن يتساءل كيف كانت لغة التقرير ستختلف لو صدر عن جهاز آخر من أجهزة الدولة ذات طابع مدني مثل وزارة الداخلية على سبيل المثال؟ أين الفهم الديني الصحيح؟

في وقت تبدو فيه دار الإفتاء ربما عاجزة عن توصيل فهمها الصحيح للدين للشعب –ربما لعدم امتلاكها لأدوات إعلامية براقة وربما لخواء خطابها ذاته وافتقاره إلى ما يحتاج الناس إليه– نجد أن هناك من يقدم بالنيابة عنها وعن غيرها إجابات باسم الدين: "إن الإسلام كدين في حد ذاته لم يكن عنصرًا في إنجازات الرازي والفارابي وإبن الهيثم، وليس عنصرا في اختفاء العلماء من بلادنا منذ هذه الكوكبة اليتيمة التي نستدعيها نندب عليها حضارتنا الموؤدة دفاعًا عن الإسلام، والإسلام منها برئ. فبالإسلام نفسه تقدمت دول أخرى في شرقي آسيا أطلقوا عليها لفورتها القاطرة نحو قطار الحضارة باسم النمور الآسيوية.. وبالإسلام نفسه تعيش بقية دول المسلمين في مؤخرة الأمم. إن المشكلة ليست في الدين ولا في أي دين. لكنها في كيفية استثمار هذا الدين، فهناك من استثمره في التقدم، ومنه من يستثمره في التخلف."، هكذا كتب سيد القمني مستنكرا ورافضا أن يكون الإسلام هو سبب تخلف المسلمين.

وما كان للمرء أن يختلف كثيرا مع هذه العبارة لولا ما قادت إليه الكاتب من نتيجة أعلنها بكل ثقة " يبدو أن سبب التخلف في النهاية هم رجال الدين أنفسهم.." فهم –على حد تعبير الكاتب– من يتحدثون عن "دمج السلطات الدينية والدنيوية" وهم من يصرون على محاصرة المسلمين بالـ"الخطوط الحمراء للأمة وثوابتها التليدة".

هكذا تنتقل وبكل بساطة مشكلة المصريين من مشكلتهم مع سلطة حاكمة تفرض فهمها للدين وللسياسة وللاقتصاد، الخ..على عموم المصريين إلى مشكلة مع "سلطة دينية" "تشكل وعي الناس وفق الرغبات السلطانية والسلطوية".[8]

---

[7] لؤي علوي وفادية شعلة، الإفتاء: الفكر التكفيرى يعادى المواطنة ويعتبر الدول العربية وريثة استعمار، جريدة اليوم السابع، 9 مايو 2015، الرابط الإلكتروني للتقرير الصحفي:
http://www.youm7.com/story/2015/5/9/%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%81%D8%AA%D8%A7%D8%A1--%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%83%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%83%D9%81%D9%8A%D8%B1%D9%89-%D9%8A%D8%B9%D8%A7%D8%AF%D9%89-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%88%D8%A7%D8%B7%D9%86%D8%A9-%D9%88%D9%8A%D8%B9%D8%AA%D8%A8%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%84-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A%D8%A9-/2174360#.VU4m7_mqqko

[8] سيد القمني، "هل الإسلام هو سر تخلف المسلمين؟"، الحوار المتمدن، العدد 4719، 13 فبراير 2015
موقع مؤسسة الحوار المتمدن الإلكتروني www.ahewar.org ورابط المقال:
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=223936

فتصب اللعنات ليل نهار على هؤلاء "المكفرين المنفرين المتاجرين بالدين المقحمين له في السياسة" إلى آخرها من النعوت، وتجتر اجترارًا ذات المقولات المهترئة عن التراث الإسلامي وعدم صلاحيته لكل زمان ومكان، وعن المسلم الذي يرى نفسه على حق ويرى الآخرين على باطل بسبب ما يلقنه إياه رجال الدين المتشددون، وعن زواج الطفلة ورضاع الكبير وشرب بول الإبل؛ مقولات رد عليها مرات ومرات وحسمها الأزهر وحسمتها دار الإفتاء لصالح فتاوى تتسق وواقعنا، ولكنها ظلت ساحة المعركة المفضلة لمن يريد التشكيك في التراث وصلاحيته لعصرنا.

وهكذا يصبح من المطلوب من المصريين أن ينشغلوا ليل نهار بحق ذلك المفكر وتلك الكاتبة في المجاهرة برفضهم لحق أهل الاختصاص الشرعي في شرح النصوص، بينما تهدر بسبب صمت هذا المفكر وتلك الكاتبة، بل وصمت الشيوخ الذين ينتقدونهم، بل وصمت الملايين من المسلمين في داخل الأوطان العربية حقوق الآلاف من البشر في الحياة والعيش بكرامة وحرية.

وبفضل هذا الخطاب تترك الساحة خالية أمام سلطة تستمد شرعية بقائها من وجودها في موقع المخلص من هذه "السلطة الدينية" التي لا يعرف لها أحد فعليا عنوانا؛ فهي تارة جماعة الإخوان المسلمين، وهي تارة أخرى السلفيين، ولا مانع في تارة ثالثة أن تصبح داعش والقاعدة وما شابههما، وعندما تنفد الحيل لا مانع من أن تصبح تارة رابعة علماء الأزهر وشيوخه ذاتهم، ليبقى الشعب المصري في معركة ضد عدو مبهم لا معالم محددة له، ولتتحقق أهداف عديدة ليس بأقلها أهمية المطابقة بين الإخوان المسلمين والجماعات المسلحة، وبين الأزهر وبين تيارات التكفير، وبين المشروع الحضاري الإسلامي وبين التطرف لتختلط الأوراق وليطال التشويه كل ما هو ذي مرجعية إسلامية. ويظل هذا "العدو الغامض" قادرا على توفير غطاء تستر خلفه سلطة –أعلن رئيسها أنه سيتصدى لمسألة "**الخطاب الديني .. إلى أن يلقى الله**"، على اعتبارها المعركة التي تركها غيره "أربعين سنة دون التعامل معها"[9]– غطاء تستر خلفه هذه السلطة عورات ممارساتها من بطش وظلم وتضييع لحقوق العباد.

وهكذا يتحول الدين إلى موضوع للتسلية تارة وللتندر تارة أخرى، في وقت توقع فيه مصر إعلان مبادئ مصيري مع إثيوبيا، وتشارك فيه في حرب غير محددة المعالم ضد اليمن، وتعقد فيه اجتماعا لتفعيل اتفاقية الدفاع العربي المشترك، وتتعاون فيه مع إسرائيل ضد فصائل المقاومة، وتواجه فيه فشلا أمنيا في سيناء، وتفرط فيه في حصص حيوية من طاقة الغاز لصالح إسرائيل، وتستمر فيه في حبس

[9] كلمة السيسي في الندوة التثقيفية:
https://www.youtube.com/watch?v=1FaN2eAwbTs

آلاف المسجونين "ظلما" –على حسب تصريح رئيسها– وترتفع فيه أسعار الطاقة والغذاء فيها إلى معدلات غير مسبوقة.

ولكن هل من الصواب التعامل مع مثل هذه الأحداث على اعتبارها مجرد مساع للإلهاء عن واقع داخلي مأزوم؟ أم أن الدين هو بالفعل يتعرض لهجمة تستحق التوقف عندها والتفكير في مخرج لها. هنا ننتقل إلى القصة الثانية التي حملها معه شهر إبريل؛ قصة وقف برنامج إسلام بحيري "إعلاء للمصلحة الوطنية، واحتراما لفصيل كبير من الشعب، واستجابة للإمام الأكبر للأزهر الشريف في تحكيم العقل عندما يتناول الإعلام مسائل الدين"[10]، وهي القصة التي ارتبطت بها مناظرة إسلام بحيري من قبل الشيخ على الجفري والدكتور أسامة الأزهري.

أما إسلام بحيري فهو "من ألقى بالحجر في بحيرة المياه الآسنة"؛ "بحيرة هؤلاء الذين غفلوا عن تجديد التراث"، وهو من ترك "جراحا غائرة في جسد التراث" أولى بالمدافعين عنه أن ينشغلوا بمداواتها عن أن ينشغلوا بالهجوم على بحيري أو منعه من تقديم برامجه، هكذا يدافع حمدى رزق بحماسة عن الوظيفة الجديدة لغير أهل التخصص الشرعي.. وظيفة الاجتهاد الديني، فبحيري إن أخطأ له أجر وإن أصاب له أجران.

ويؤكد أن القضية يجب أن تتحول لا لتصبح قضية "إسلام" وإنما لتصبح قضية "الإسلام" والحاجة إلى التجديد. ويتوقع حمدي رزق أن تأتي ثورة التجديد بفضل آلاف سيخرجون من بين ظهراني العلماء وليس الدخلاء على الدين؛ كما آثر الكثيرون تسمية إسلام بحيري –على حد تعبير رزق. [11]

حمدي رزق نفسه لا يتردد في سياق آخر أن ينتقد قرار وزارة الأوقاف حرمان تركيا وقطر وإيران من المشاركة في المسابقة العالمية لتحفيظ القرآن التي تقيمها الوزارة سنويا. ويصب الكاتب جل همه على التأكيد على أن الرئاسة لابد وأنها لم تستشار في هذا القرار وأن في هذا خلط غير مقبول بين الدين

[10] هكذا جاء نص بيان وقف البرنامج المذاع على قناة القاهرة والناس: القاهرة والناس توضح أسباب توقف برنامج إسلام بحيري، المصري اليوم، الأربعاء 22 إبريل 2015، على الرابط الإلكتروني:
http://www.almasryalyoum.com/news/details/714486

[11] حمدي رزق، إسلام بحيري أحببتموه أم كرهتموه، المصري اليوم، الأحد 2015/4/26 على الرابط الإلكتروني:
http://www.almasryalyoum.com/news/details/717375

والسياسة، وإقحام لوزارة الأوقات فيما لا تفهمه؛ ويعني به علاقات مصر على المستوى الخارجي، ليترك المرء متعجبا من هذا التناقض الصريح حول معنى التخصص في العلم وقيمته. [12]

وليس حمدي رزق وحده من انبرى للدفاع عن بحيري، فمريدوه كثيرون، ولكن نتصور أن كثيرا منهم أساء فهم ما يحمله إسلام بحيري من رسالة. كانت الكاتبة فاطمة ناعوت على سبيل المثال هي واحدة ممن استغرقهم الدفاع عن إسلام بحيري على اعتباره داعي التفكير وإعمال العقل الذي يقابله المتشددون بالقهر والقمع. وهي في هذا تتسق مع ذاتها التنويرية التي كتبت لمعارضي بحيري ورافضي منطقه قائلة "هلا أريتمونا التفويض الذي منحكم الله إياه لتدينونا وتحاسبونا في الأرض لأننا فكرنا وعبرنا، في حين تصمتون حين يقتل القتلة ويذبح الذابحون".[13] فأن يتحدث العلماني عن دين يمنح الفرد طاقة روحانية وقيما أخلاقية ويتعبد به الفرد لخالقه دونما أن تكون لهذا الدين سلطة على كافة مناحي حياة الفرد، فهذا أمر طبيعي هو من صميم الفهم العلماني للدين، حتى أن يتحدث العلماني عن الدين كمؤثر ومحدد في مناحي الحياة ويجرد رجال العلوم الشرعية من احتكارهم لحق فهم النصوص الدينية واستنباط أحكامها والإفتاء بشأنها، وأن يمنح نفسه على اعتباره "الفرد العاقل الرشيد" هذه الصلاحيات، وصلاحيات غيرها في فهم نص وإنكار آخر، فإن هذا أيضا ليس بالجديد، أما الجديد في طرح إسلام البحيري فهو طابعه الكلي، هجمته على أسس العلوم الشرعية ذاتها وبحرفية شديدة وبمفردات دينية براقة تصول لتشكك في الأئمة الأربعة وتجول لتشكك في صحيحي البخاري ومسلم، لتوحي لمن يتلقى عنه أننا إمام **اكتشاف لدين إسلامي جديد** غفل الجميع عن إدراكه، بينما فطن هو وحده إلى وجوده. هذه هي المرة الأولى التي يوجه فيها هذا الخطاب بهذه الكثافة وبهذا الوضوح إلى عموم المسلمين. فكان إسلام بحيري –عبر سلسلة حلقات فضائية قدمها عبر ما يزيد عن عامين متتاليين في برامج حملت عناوين عدة– قد انتقل بالهجمة على الإسلام إلى مرحلة أخطر وأعمق من مرحلة المستدعين لمنطق العقل وإعماله في فهم النصوص الدينية. وهو في كل لحظة يكشف عن "سر خطير" يتخذه مدخلا لا لتشويه التراث وفقهاء السلف، وإنما لهدم هذا التراث بالكلية ورفضه كاملا، فها هي تارة السيدة عائشة رضي الله عنها تتزوج في الثامنة عشر من عمرها على عكس الذائع من زواجها في سن صغيرة، وها هم تارة الأئمة الأربعة لم يعاصروا البخاري ولا مسلم ومن ثم خرجوا بأحكامهم الفقهية دونما حاجة إلى كليهما؛ فلماذا نحتاج نحن إليهما، وها هو تارة الإمام أحمد بن حنبل أكثر من استعان بالأحاديث المكذوبة والموضوعة والمغلوطة

---

[12] حمدي رزق، حتى حفظة القرآن الكريم، المصري اليوم، الإثنين 2015/4/20 على الرابط الإلكتروني:
http://www.almasryalyoum.com/news/details/712483

[13] فاطمة ناعوت، أرني تفويض الله، جريدة الوطن، 9 إبريل 2015، الرابط الإلكتروني:
http://www.elwatannews.com/news/details/705990

في التوصل إلى أحكامه الفقهية، ثم ها هو حد الردة، ..الخ.. تعميمات بلا ضابط ولا رابط تجتمع لتشكك في التراث الإسلامي وفي جدوى العلم الشرعي. [14]

من هنا كانت لحظة المناظرة بين إسلام بحيري والشيخ على الجفري والدكتور أسامة الأزهري لحظة مفصلية؛ لحظة كاشفة عن حجم البعد بين المسلم المعاصر وبين مساحات التفكير المنهجي المسلم والإبداع المضبوط بقواعد وأسس، لحظة لو كانت حاضرة في حياة شعوب المسلمين بشكل يومي، لما كان مثلهم مثل الحمار يحمل أسفارا.

يأخذنا البحيري لنقطة انطلاقه الأهم.. نقطة "الجزئيات"، ويغرقنا في تفاصيل، فنلهث خلفه وهو يتحدث عن زواج الصغيرة وزواج المتعة تارة وعن الحرق في التاريخ الإسلامي تارة، وعن الردة وحد الردة وكيف أنه وصل –مثل آخرين غيره– إلى أن حد الردة، ومن بعده حد الرجم، لا وجود لهما في الإسلام تارة أخري. لينتهي به الحال إلى أن يقول بإمكانية "وصولنا" إلى إنتاج علم بفهم مباشر للنص دون التقيد "بذلك الحائل المسمى بفهم القرون الثلاثة الأولى المفضلة". فهو يغبط فقهاء القرون الأولى لأنهم كانت لهم الحرية الكاملة في تأسيس منهج، ويتساءل لماذا يعطى هؤلاء هذه الحرية بينما تسلب من أمثاله ممن يقرأون النصوص الدينية ويتصورون أنهم يمتلكون من الملكات اللغوية ما يمكنهم من فهمها.

"أصحاب المذاهب الأربعة هم الإرهابيون، المتطرفون، الخوارج، الذين يستحقون أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف"، فهم لا ينظر إليهم على اعتبارهم أصحاب "تفسيرات باطلة للإسلام، وإنما (على اعتبارهم هم) الإسلام"! "فإذا قدمت الإسلام على اعتباره تفسيرات القرون الثلاثة الأولى"، يكون الإسلام هو "اللعنة.. هو الإرهاب ..والدموية ..والتطرف المأمور بقتل كل الناس أجمعين" بدليل تقسيم (ابن تيمية) للناس إما إلى "كفار أو "طوائف" من المسلمين إما كفار أو مسلمين سنة وارتدوا"؛ ناهيك عن أن المذاهب الأربعة وأكبر ثلاثة مذاهب "التي أسست ما نحن فيه" من أبي حنيفة ومالك والشافعي (حيث أنه لا يعتبر مذهب أحمد بن حنبل بمذهب أساسًا) كلها وضعت دون وجود البخاري ومسلم اللذين يعتبرا مصادر السنة الأساسية، حسب تصور بحيري. فتعاظم السند في أهميته حتى قاد إلى "أن أصبح ضد الدين وليس معه"، لتتحكم "أحاديث ضعيفة وموضوعة" في فهمنا للدين. "متفق عليه"، "إجماع الأمة"، "القرون المفضلة"، "إنكار المعلوم من الدين بالضرورة"، "وسلطة أهل الذكر" كلها "قيود" –يرصدها بحيري– وضعها هؤلاء على فهم المسلم للنصوص المقدسة القرآنية والأحاديث.

[14] راجع في هذا الصدد: حلقة 17 إبريل 2015 من برنامج "ممكن" على القناة الفضائية cbc والتي استضافت مناظرة بين إسلام بحيري وبين الشيخ علي الجفري والدكتور الأزهري أسامة الأزهري. على الرابط الإلكتروني:
https://www.youtube.com/watch?v=nSjaws1IIYg

فيصل بحيري إلى خلاصات واضحة: "التراث أفسد حياتنا"، "هذا التراث يجب أن يهدم نقضا"، "لابد من تغيير الخطاب الديني وليس تجديده"، "هذا هو مشروعي ... تهوين التراث".

هكذا تعميمات وإطلاقات لا نهاية لها يسحب الجزء على الكل لينتهي به الحال إلى رفض الكل برمته. وليصل إلى أن الدين ليس علمًا، ولو لم نقبل بهذا، فأضعف القول هو أن نعطي المسلم الحق في أن يرفض فكرًا. و"لكن الأصل" –هكذا يؤكد بحيري واثقًا– "هو أن الدين ليس علمًا"، وأننا لسنا بحاجة إلى الفقهاء لا المتأخرين ولا المتقدمين حتى نفهم الدين ونفهم ما نريده منه وما يريده منا.

ويرى بحيري أن الكثيرين ربما يعجزون عن تقبل هذا المنطق الجديد في التفكير، لكنهم سرعان ما سيتقبلونه حين يألفونه.

اجتهد الدكتور أسامة الأزهري والشيخ على الجفري –في ردهما على بحيري– لأداء تلك الفريضة المتروكة في كلام شيوخ آخرين انبروا في الهجوم على بحيري وغيره، فقد كانوا حريصين على أن يعلموا المسلم كيف يفكر بعقل المسلم، فكان منهجهم منذ اللحظة الأولى للمناظرة هو منهج البحث عن الكليات وتسكين الفتات في إطار سياق أعم من فهم معنى العلم ومعنى التراث ومعنى الوجود الإنساني على الأرض.

ولم يمنعهم اختلافهم مع بحيري من أن يبحثوا عن مساحات للمشترك بين المتناظرين يمكن الاتفاق عليها: "الأخلاق، وإعمال العقل وعدم النظر إلى ما قدمه من سبقنا على اعتباره مقدسًا لا يقبل المساس،.. إلى صناعة عقول تدخل إلى هذا الدين فتخرج منه وقد صنعت حضارة وإنسانية ورقيًا،.. تجلية كل المسائل التي قد تقود الإنسان إلى دخول هذا الدين منفعلا فيخرج منه ليقتل."

ولم يجرهم خطاب بحيري إلى مساحته، لا إلى لغة خطابه المنفعلة المتعالية الهجومية ولا إلى مضمون خطابه التجزيئي، فلم تكن المناظرة –بالنسبة لهم– محاولة للانتصار لرأي على آخر في فرعيات ومسائل اختلف الفقهاء والعلماء حولها مئات المرات، وإنما كانت المناظرة بالنسبة لهم محاولة لتبيان الخلل الكلي في منطق التفكير الذي يحمله خطاب بحيري.

فحرص كل من الأزهري والجفري على التأكيد على أن منهج بحيري وافد على المنطق الإسلامي في التفكير في الدين، وذلك بناء على محورين أساسيين:

المحور الأول، هو محور العلاقة بين العلم والدين حيث أراد الأزهري والجفري منذ اللحظات الأولى للمناظرة أن يبينا أن المسألة "ليست لا البخاري ولا مسلم ولا الردة ولا الحدود" فقط، وإنما القضية

هي قضية كلية؛ هل الدين علم أم الدين ليس علمًا؟ هل العلوم الشرعية علوم أم لا؟.. هل يمكن التعاطي مع النصوص المقدسة دونما منهج أم أن هناك منهجا له ضوابطه تم بناؤه ومراكمته على مدار سنوات طويلة من عمر الأمة هو الذي يميز بين أهل الاختصاص الشرعي وغيرهم؟ "

هكذا جاء مذهب أسامة الأزهري في نقد فكر إسلام بحيري في تأكيده على أن منطق إسلام بحيري في التعامل مع التراث يتشابه مع منطق سيد قطب في التعامل معه، حيث يرفض كلاهما تراث مئات السنوات من الجهد الإسلامي. في مقابل منهج الأزهر الذي هو منهج علمي مدروس صقل على مدار عدة قرون، لا يحتكره الأزهر وحده وإنما تتقاسمه معه كل المؤسسات العلمية التي "تطبق ذات الخريطة المعرفية"، وتولى أبناؤه مناصب في كل بلدان العالم "فما رأى منهم الناس القتل وإنما رأوا منهم المنهج الحميد"، هكذا أكد الأزهري وأضاف أنه حتى قبل وجود الأزهر كانت المدارس العلمية التي صوب بعضها بعضا وقوم بعضها بعضا حتى اكتمل المنهج. وليس الكهنوت في امتلاك منهج، إنما في ادعاء أحد امتلاك المنهج وقصره على نفسه. حتى المنهج يمكن إخضاعه للنقد وللتعجيز ولكن بعد دراسته.

أما الشيخ الجفري فيلتقط من سمات منهج بحيري سمته الحداثي؛ فمنهج بحيري قائم على فهم حداثي لمعنى العلم، فالعلم هو العلم التجريبي، حيث "كل المستحيل عقلًا مرفوض"، و"ليس هكذا يتعامل المرء مع الدين".

ويضيف الجفري على ما قاله الأزهري قوله أن هذا هو منهج داعش، لأنهم يأخذون من النصوص ما يريدون ويتركون ما لا يعجبهم، ولأنهم أيضا يدفعون بإمكانية الذهاب إلى النص مباشرة لفهمه "بالهوى" "وليس بالقواعد العلمية العقلية"، بل إنهم –وعلى عكس كل ما يروج من أنهم أبناء التراث الإسلامي السلفي الأصيل ومنتجه، لا يقبلون المذاهب الفقهية ولا يأخذون عنها، "لهذا نقول أن المنهج الداعشي بل حتى الإخواني بل حتى السلفي المعاصر المتشدد منه لم يخرج من المنهج الشرعي، بل هم قاموا على أساس التناغم مع الحداثة، حيث "لا يوجد احترام لتخصص من حق كل من يشاء أن يقول ما يشاء حتى في التخصص الديني". هكذا يفسر الجفري كيف يقبل شباب من أوروبا على الانضمام لداعش بأن الرؤية الحداثية التي يبحث عنها هؤلاء الشباب وتربوا عليها هي موجودة في قلب داعش بدمويتها وعنفها. فداعش –بالنسبة للجفري– هي خير دليل على عبثية منطق إعمال العقل في النصوص لننتقي منها ما نريده ونترك ما لا نريده.

المحور الثاني، هو محور نقد ما أنتجته القرون الأولى من كتب فقه وحديث وعلوم شريعة:

فرفض الأزهري تصوير الفقهاء على أنهم يتفقون على معنى يتنافى مع الإنسانية والرحمة والفطرة والخلق واعتبر هذا التصوير بمثابة جريمة في حقهم، لأن "ميزان الاستقرار الفقهي أن لا ضرر ولا ضرار". "فما كانوا أبدا يتجاوزون حد الإنسانية والرحمة،.. ولو أخطأ بعضهم لراجعتهم الأجيال التالية، والتي تليها حتى تعتمد في الفتوى آراء غير آراء الفقهاء الأصلية". هكذا كان حريصا على رفض ادعاء العصمة لبشر مهما بلغت مكانتهم، لكنه كان حريصا على التمييز بشكل واضح بين أن يقول أهل التخصص والعلم أن الفقيه أخطأ في فهم مسألة وبين أن ينكر الفقيه –بل وينكر الفقه برمته– إنكارا كاملا.

وبالمثل ميز الأزهري بوضوح بين السنة وبين البخاري أو مسلم، مؤكدا أن حديث بحيري محمل بمغالطات كثيرة في هذا الخصوص، فمن ينتقد حديثًا في البخاري ومسلم لا ينكر السنة، كما ادعى بحيري. فالسنة أوسع من البخاري ومسلم بكثير و"لكنهما على قمة الهرم المعرفي لدقة المنهج الزائدة في تخريج الأحاديث". وينكر الأزهري على بحيري قوله أن الأسانيد تحولت إلى قيد على المتون، فحسب الأزهري، العكس هو الصحيح، حتى أن من أساليب نقد السند النظر في المتون. وليس كل حديث صح سنده صح العمل به، فلا يعمل به دون أن يعرض على غيره من النصوص في القرآن والنصوص الأخرى في السنة.

وهناك فارق بين من يستشكل في حديث ويقدم أطروحة علمية ينتقد به أحدها، أو يرد على مسائل فقهية بعينها فتخضع للمناقشة من أهل العلم، وبين من يطيح بصحيحي البخاري ومسلم بالكلية، ويرفض الأئمة الأربعة ويتحدث عنهم على اعتبارهم محورًا للشر. وهو بهذا يسعى لهدم الدين برمته.

في هذا السياق أضاف الجفري حديثا عن خطورة "الشطب"، فأن نشطب من كتب الأحاديث والفقه ما لا يعجبنا ولا يتوافق مع ذوقنا أو نراه متعارضا مع ظاهر نص آخر هو –في تقديره– أمر يتعارض مع منطق العلم الشرعي، فـ"قضية الشطب هي آخر ما يلجأ إليه عند من يفقه العلم"، و"التراث احتوى على الكلام ونقده"، ولهذا منهج للتعامل معه، ففي العلم آليات ومناهج عديدة للتعامل مع المسائل المتعارضة ظاهرا، وما تخريج الفروع على الأصول وما يعرف في علم أصول الفقه بالجمع بين الأدلة والتعامل مع المتعارضات إلا أمثلة يسوقها الجفري على هذه المناهج.

ويضيف الجفري أن منهج الشطب منهج غير علمي حتى في منطق العلوم الحديثة، ضاربا في ذلك مثلا بهيجل، فيقول لو أن الشطب حل لشطبنا هيجل وهو يكتب بقسوة شديدة عن الحرب ولضيعنا على الإنسانية ما كتبه عن الحق والخير والجمال.

من هنا يؤكد الجفري أن الحديث لا ينقض بحجة أنه يتعارض مع عقل المسلم ولا بحجة أنه يخالف فهم البعض، وإنما هناك ضوابط عديدة للتعامل مع الأحاديث. حتى أن مناهج الإثبات والتوثيق اختلفت بين المحدثين والفقهاء، فكل منهم يوثق مسألته بطريقة. فمناهج الإثبات لم تتوقف عند مناهج المحدثين وللفقهاء مناهج يضيفونها ليتثبتون بها من النص. ناهيك عن أن الأحاديث الضعيفة يؤخذ بها في فضائل الأعمال ولا يؤخذ بها فيما يخص العقائد ولا العبادات، هكذا كان منهج الأئمة الأربعة.

انتهت المناظرة أو الحوار بتأكيد الجفري على حاجتنا إلى التجديد من خلال تطوير نموذجنا المعرفي، واستحضار رؤيتنا الكلية، التي بسبب غيابها أصبحنا ضحايا للمنتج المعرفي للآخرين. وهو – في تقديره– مشروع طويل المدى يستلزم توصيل هذه الأفكار إلى المسلم العادي وبكل الوسائل المتاحة.

وواقع الأمر أن عرض العامة على هذا النقد الصريح للدين وأسسه –رغم ما ينضوي عليه من خطورة حقيقية– إلا أنه يشكل فرصة هامة من الممكن أن يعاد فيها تعريف العامة بالعقل المسلم ومكوناته، وأن يدعى فيها العلمانيون للتصالح مع تراث إسلامي وعي واقعه وخدم مصالح المسلمين في إطار فهمه لهذا الواقع، اجتهد فأصاب وأخطأ، ولكنها لحظة بحاجة إلى إرادة واستراتيجية تخدمها منهجية علمية في مخاطبة العامة حتى يستعيد هؤلاء وعيهم بمقومات العقل المسلم ولا ينتهي الرد على "هجمة الإصلاح الديني" بكل عند نقطة صفره. ولكنها إرادة واستراتيجية أبعد ما نكون عنها في واقعنا الحالي حيث يوظف الإصلاح الديني لخدمة أغراض سياسية استبدادية. هكذا تنتهي المناظرة فيبقى العامة يرددون مقولات الإسلام دين وسطي سمح بلا محتوى أو مضمون، ويبقى العلمانيون يدافعون بشراسة عن حقهم في إعمال العقل في النص الديني على النحو الذي ينتج لهم دينا بمواصفات خاصة، ويبقى الجميع يتشدقون بتسامح وحرية تفكير "انتقائيين"، يستحقهما العلمانيين ولكن لا يستحقهما فيما يبدو الإسلاميين أو غيرهم من قوى المعارضة، والذين تنتهك في حقهم مقاصد الشريعة الخمسة من حفظ دين ونفس ونسل وعقل ومال على مرأى ومسمع وصمت وتأييد الكثيرين –بما فيهم شيخي المناظرة[15] ومؤسسة الأزهر التي دافع الشيخان عن منهجها العلمي.

[15] راجع في هذا الخصوص مقال: سيف الدين عبد الفتاح، "مناظرات الإلهاء وغشم الإقصاء"، مصر العربية، الأحد 19 إبريل، الرابط الإلكتروني:
http://www.masralarabia.com/%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%82%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%AA/%D8%B3%D9%8A%D9%81-%D8%B9%D8%A8%D8%AF%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%AA%D8%A7%D8%AD/561465-%D9%85%D9%86%D8%A7%D8%B8%D8%B1%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%84%D9%87%D8%A7%D8%A1-%D9%88%D8%BA%D8%B4%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%82%D8%B5%D8%A7%D8%A1

يتوقف هذا التقرير في آخر محطاته مع مسألة أخرى هامة ترتبط بقضية الإصلاح الديني يثيرها المفكر حسن حنفي في مقال له في جريدة المصري اليوم.[16]

يقول الكاتب أنه بينما انشغلت الصحافة –حسب قوله– بمحاولة البحث في مدى الدقة التاريخية لواقعة شج رأس الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد، كان هناك سؤال إجابته أسهل بكثير ولكن لم يجتهد أحد للإجابة عليه، ألا وهو هل احتلت فلسطين، وهل تهدر دماء فلسطينية كل يوم؟

ترسي مقالة حسن حنفي علاقة هامة بين ثلاثية الخطاب والفكر والموضوع: "**إذ لا يكفى تجديد الخطاب الدينى بل لابد من الانتقال فى الخطاب من اللغة إلى الفكر وحينئذ يكون الموضوع تجديد الفكر الدينى. ولا يكفى تجديد الفكر الدينى فالفكر له موضوع، ومن ثم يجب الانتقال من تجديد الخطاب وتجديد الفكر الدينى إلى تجديد الموضوع الدينى.**". فما لم يتحقق هذا الانتقال لظلت الأمة العربية تعيش حالة من "الاغتراب الديني"، فيغترب الدين في تصوره عندما ينسحب إلى مجرد مساحة للتفكير الخيالي، كالاستغراق في إضفاء القداسة على الرسول صلى الله عليه وسلم إلى حد ينبري معه البعض في نفي واقعة شج رأسه عليه أفضل الصلاة والسلام، تاركا مساحة العلاقة بالدنيا والواقع والسياسة.

هكذا يستغرق الفكر الدينى (في) الغيبيات التى لم يرها أحد (يستغرق في حديث عن عذاب القبر والحور العين ومعجزات الرسول ونعيم الآخرة) ويترك الحسيات فى فلسطين والعراق وسوريا وليبيا واليمن ومصر، لينتهي الكاتب إلى الاستعاذة بالله من "علم لا ينفع" يخرج الدين تدريجيا من مساحة ميدان الطبيعي إلى ميدان ما فوق الطبيعي يجيب على سؤال هل شج رأس الرسول صلى الله عليه وسلم في أحد أم لم يشج، ولا يجيب على سؤال كيف تكون استعادة فلسطين بالمقاومة أم بالمفاوضات أم بالإثنين معا.

وعلى الرغم من إمكانية اختلافنا مع كاتب المقال حول أهمية الغيبيات ودورها في فهم أدق للواقع يتجاوز الثنائيات ويجمع بين المادي وغير المادي في اعتباره، ويجد للوجود الإنساني على الأرض دلالات أعمق من مجرد العيش في عالم محكوم عليه بالفناء، نقول على الرغم من إمكانية الاختلاف حول هذه المسألة، إلا أن المقال يرشد إلى ركيزة ثانية هامة يمكن أن ينصرف إليها إصلاح ديني حقيقي. فإذا كانت المناظرة قد أرشدت إلى مساحة من الإصلاح الكلي مطلوبة، فإن المقال يرشد إلى مساحة من

[16] حسن حنفي، "هل شج رأس الرسول في أحد..أم احتلت فلسطين؟"، جريدة المصري اليوم، 2015/5/7، الرابط الإلكتروني: http://www.almasryalyoum.com/news/details/726004

الإصلاح الجزئي المطلوبة بدورها، فبدون تجديد الوعي بالرؤية الكلية المعرفية من ناحية وبدون تنزيلها على واقع المسلمين المعاصر من ناحية أخرى يظل أي حديث عن إصلاح ديني هو حديث مبتسر فارغ المضمون والجوهر.

ناهيك عن خطورة أهدافه السياسية، أي أهداف توظيفه في لعبة صراع سياسي بالأساس يتحالف فيها الخارج والداخل في هجمة حضارية أخري على المنطقة برمتها، فإن ما يحدث على " الساحة الفكرية" بأقلام وألسن من يسمون بالمثقفين والإعلاميين وحلفائهم من المدافعين عن "أحادية إسلامية" تحتكرها الدولة، ليس إلا ذراعًا أخرى تسند وتدعم أدوات القهر السياسية والقانونية والمسلحة. ولابد من التصدي الفكري لها خدمة للمقاومة الحضارية للأمة ضد الهجمة الراهنة على الثورات بذريعة أنها إرهابية تشوه الإسلام.